أحمد بن سليمان بن النظر السمائلي
عصره - سيرته - ما وصل إلينا من آثاره

الدكتور محمود بن مبارك بن حبيب السليمي
كلية التربية بنزوى
سلطنة عُمان

أحمد بن سليمان بن النظر السمائلي
عصره - سيرته - ما وصل إلينا من آثاره

الدكتور محمود بن مبارك بن حبيب السليمي
كلية التربية بنزوى
سلطنة عُمان

مقدمة:

عرف التاريخ العماني رجالات وأعلام، سياسيين وأدباء وشعراء ومفكرين ومؤرخين يُستحق أن نقف عندهم وقفات تلقي الضوء على سيرتهم، وتاريخ حياتهم الحافل بالعطاء، النابض بالحيوية منهم الشيخ الشاعر أحمد بن النظر السمائلي.

وإذا انطلقنا من مقولة: إن في العالم شخصيات تاريخية مهمة، حياتها أشبه ما تكون باللغز، بسبب ندرة الأخبار الواردة عنها، فلا يُدرى متى ولدت؟ ولا كيف عاشت؟ ولا يعرف أيضاً متى توفيت؟ لأن كتب الأدب والتاريخ وأمهات المصادر، لا تكاد تذكر عن ذلك ما يرجح ظنّنا، أو يقطع شكنا. فإن هذه الحالة تنطبق على علَمِنا أحمد بن النظر على الرغم من شهرته وكثرة من اهتم بآثاره- "عالم الشعراء، وشاعر العلماء"، الذي اضطربت الأخبار، وتناقضت الآثار في الإشارة إلى حياته على قلتها، ولذلك فإن هذا البحث يسعى إلى مقاربة تلقي الضوء على الشاعر وسيرته وزمان حياته، مع أن شخصيته هذه مغرية لدفع الباحث لاستكناه آفاق دنياه، وارتياد مجهولها، ففيها متعة، ومنفعة، لأنها تعكس شخصية العالم، الذي لا تجذبه الدنيا، ولا تؤثر في مبادئه متعها

وإغراءاتها، ذلك أن هذه الشخصية المنتمية فيها من الطموح والإباء والحماسة والغيرة والمجازفة ما يلفت الانتباه ويستدعي التأمل.

أولاً – عصره:

بعد سقوط الحكم البويهي في عمان في العقد الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، بدأ عهد الإمامة الإباضية الثالثة بمبايعة الخليل بن شاذان إماماً على عمان. حيث يشير الإزكوي في كتابه "كشف الغمة" إلى بيعة الإمام الخليل بقوله: "كانت في بضع وأربعمائة سنة، وقام خلال فترة حكمه بإصلاحات واسعة، فأسقط المكوس، وأظهر العدل، وأحسن على الرعية"[١].

وظلت عمان منذ ذلك التاريخ حتى أواخر النصف الأول من القرن السادس الهجري تحت حكم الإمامة الإباضية الثالثة. بدأ بعدها عصر جديد أطلق عليه المؤرخون اسم عصر النباهنة ٥٤٩-١٠٣٤هـ/١١٥٤-١٦٢٤م.

يجمع المؤرخون العمانيون على أن حكم بني النبهان[٢] في عمان استمر لخمسة قرون، ويقسمون عصرهم إلى مرحلتين:

الأولى: وتعرف بعصر النباهنة الأوائل، ويمتد أربعمائة عام، بدأ بوصولهم إلى السلطة عام ٥٤٩هـ/١١٤٥م، وانتهى بالقضاء على حكم سليمان بن سليمان بن المظفر النبهاني الملك الشاعر المشهور، ومبايعة محمد بن إسماعيل إماماً على عمان سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م[٣]، وقد تخللت هذه الفترة وبخاصة في بدايتها حروب واجهت بني النبهان من الداخل والخارج، بالإضافة إلى تنصيب الأئمة بين فترة وأخرى.

الثانية: وتعرف بعصر النباهنة المتأخرين، وتبدأ سنة ٩٠٦هـ/١٥٠٠م، وتنتهي بقيام دولة اليعاربة سنة ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٤م، وهو عصر لا علاقة له بموضوع دراستنا هذه.

غير أن المؤرخ العماني المعروف سعيد بن سرحان الإزكوي يضع تقسيماً آخر لفترة حكم النباهنة يجعل فيه بداية عصرهم الأول عام ٥٥٧هـ/١١٦١م، وهو تاريخ وفاة الإمام محمد بن خنبش، وينتهي بمبايعة الإمام مالك بن الحواري سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م. ويبدأ الثاني سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م، وينتهي سنة ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م(٤). ولعل مدة السنوات العشر التي تفصل بين التقسيم الأول والتقسيم الإزكوي هي مرحلة صراع تقاسم فيه النباهنة والأئمة السيطرة على البلدان العمانية، وهي الفترة التي قتل فيها الشيخ أحمد بن النظر.

تذكر المصادر التاريخية العمانية "أن الإمام خنبش بن محمد توفي سنة تسع وأربعين وخمسمائة"(٥)، وبعد وفاته بويع ابنه محمد بن خنبش، وقد اشتدت الفرقة في زمنه، فاستولى النباهنة على زمام الأمور(٦).

ويشير الإزكوي إلى أن وفاة الإمام محمد بن خنبش كانت سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وأصيب أهل عمان بموته بما لم يصابوا بأحد من قبله"(٧).

ولعل تلك هي الفترة التي يصفها المؤرخون العمانيون بأنها من أشد فترات الجور والظلم والشتات، كان فيها النباهنة ملوكاً في بعض البلدان العمانية، وكان الأئمة يقيمون في بلدان أخرى، وكان التناحر بين الفريقين كبيراً.

إذا كان وصول النباهنة إلى السلطة في أواخر أيام الإمام محمد بن خنبش، فمن المرجح أن تكون الفترة الممتدة من ٥٤٩هـ (وهي السنة التي يعدّها قسم كبير من المؤرخين بداية لعصر النباهنة) وإلى عام وفاته سنة ٥٥٧ هـ، مرحلة صراع على السلطة بين ملوك النباهنة وأئمة الإباضية، سيطر خلالها النباهنة على مناطق، والأئمة الإباضية على مناطق أخرى، وانتهى الأمر لصالح النباهنة سنة ٥٥٧هـ، حيث تمكنوا من السيطرة على أغلب المناطق العمانية.

فإذا ربطنا ما تقدم مع الرواية التالية، سيكون بمقدورنا تحديد الفترة التي عاش فيها أحمد بن النظر، ووضع تاريخ تقريبي شبه دقيق لولادته ومقتله، وفيما يلي نص

الرواية نقلاً عن مخطوطة "خزانة الأخبار: "ورد في كتاب "بهجة الأبصار" أن جبر ابن سماعة بن محسن من بني نبهان أخّ لخردلة بن سماعة، توعد أخاه وتهدده، وصارت بينهما حنات، فخرج خردلة إلى القواريت[٨] من إزكي، بخيله ورجاله، ووقعت بينهما ملحمة استمرت من ضحى النهار إلى العصر، وقتل خردلة جبراً، وجبر خردلة مصادفة، وانهزم الفريقان في كل وجهة فاراً، وأراح الله الناس، ثم اجتمع المسلمون على محمد بن غسان، فنصّب إماماً، وهو أول من نصّب بعد مقتل ابني سماعة[٩].

إذن بويع محمد بن غسان بالإمامة بعد وفاة الإمام محمد بن خنبش سنة ٥٥٧هـ، وبعد مقتل خردلة وجبر مباشرة، وبما أن خردلة من أمراء النباهنة، وهو قاتل الشيخ أحمد بن النظر، فإننا نستطيع أن نؤكد أن مقتل الشيخ أحمد كان قبل عام ٥٥٧هـ، وقبل مبايعة الإمام محمد بن غسان أي أنه قتل في أواخر عهد الإمام محمد بن خنبش، وبالتحديد بين عام ٥٤٩هـ، وهو تاريخ وصول النباهنة إلى السلطة، وعام ٥٥٧هـ وهو تاريخ وفاة الإمام محمد بن خنبش ومقتل خردلة وأخيه جبر ومبايعة محمد بن غسان بالإمامة، وبما أن المصادر التاريخية تجمع على أن الشيخ أحمد بن النظر قتل وله من العمر خمسة وثلاثون عاماً، فإننا نستطيع أن نحصر تاريخ ولادته بين عامي ٥١٤هـ و ٥٢٢ هـ وبذلك تكون حياته بين ٥١٤-٥٢٢ و ٥٤٩-٥٧٧هـ.

بناءً على ما تقدم يتبين لنا أن الشيخ أحمد بن النظر عاصر مرحلتين متناقضتين هما: نهاية عصر الإمامة الثالثة، حيث ولد فيه ووضع كتبه ومؤلفاته العلمية، وبداية عصر النباهنة، حيث كان مقتله.

ولما كان عصر الإمامة الثالثة وبخاصة في مراحله الأخيرة أي في عهد الإمام محمد ابن خنبش غامضاً لندرة المعلومات المتوفرة عنه في المصادر التاريخية التي تكاد تقتصر على ذكر أسماء بعض الأئمة الذين حكموا عمان، ولا صلة مباشرة لهذا

بموضوع البحث، فسأكتفي بتقديم عرض لخصائص عهد النباهنة الأوائل، وفي إطار البحث نفسه.

١- يكاد يجمع المؤرخون العمانيون على أن عصر النباهنة كان عصراً استبدادياً، استولى ملوكهم وأمراؤهم على ممتلكات الرعية بطرق غير شرعية، وفرضوا الضرائب الباهظة على الناس بشكل لا يتفق مع تعاليم الإسلام وقواعده في جمع الزكاة، وفيما يلي بعضاً مما أورده الإمام السالمي في كتابه "تحفة الأعيان" عن ممارسات الأمير خردلة بن سماعة بن محسن النبهاني أمير سمائل وقاتل الشيخ أحمد بن النظر: "كان يأخذ أموال رعيته ظلماً، فكان يأخذ من السبع نخلات نخلة، ويسقي أمواله بماء العباد، ويأكل أموال المساجد والمدارس، والمقابر، ويأخذ نصف مهر المرأة من المعجّل إذا تزوجت، وإذا طلقت خاصم في المهر المؤجّل، وكان يأخذ نصف الحب والتمر والقطن، ويكلّف الناس حمل متاع بيت المال إلى الحصن بعنف، ويكلّف أهل فيقا(١٠) وبدبد(١١)، يحملون تمرهم وما يقتضيه منهم على دوابهم وظهورهم إليه، ولا يبالي، ويأخذ نصف حق المدعي"(١٢).

٢- يعدُّ عصر النباهنة ولاسيما في مراحله الأولى من أكثر فترات التاريخ العماني تنافساً وصراعاً على السلطة، سواء أكان هذا الصراع بين الأمراء والملوك النباهنة من جهة والأئمة المنتخبين من جهة أخرى، ومثال صراعهم مع الإمام محمد بن خنبش الذي انتهى باستشهاده (رحمه الله) سنة ٥٥٧هـ، وصراعهم مع الإمام محمد بن غسان المتوفى سنة ٥٧٦هـ. أو الصراع بينهم وبين القبائل العمانية الأخرى، أو حتى الصراع على السلطة بين النباهنة أنفسهم، الذي تجاوز مسألة الصراع بين أبناء العم منهم إلى حدّ الصراع بين الأخ وأخيه، وخير مثال على ذلك الصراع بين خردلة الجبار وأخيه جبر ومقتلهما في معركة القاروت قرب إزكي(١٣).

٣- مثّل النباهنة نظاماً سياسياً صرفاً، وكانوا ملوكاً وأمراء، حكموا عمان بطريقة مغايرة لأسلوب الأئمة وطرائقهم في الحكم، حيث مال النباهنة إلى حياة الرفاهية والترف، وبنوا القلاع والحصون لتحميهم من هجمات منافسيهم من أنصار تيار الإمامة الإباضية، بينما اتصف الأئمة بالزهد والتقشف، وكانت نتيجة ذلك أن ظهر تياران فكريان في المجتمع العماني سمتهما المميزة التناقض التام، وكانت الحالة السائدة بينهما هي الصراع. وقد أدرك النباهنة خطورة ذلك عليهم وعلى مصالحهم، فعمدوا إلى تصفية معارضيهم بقوة السيف، ومثال ذلك ما حصل للشيخ أحمد بن النظر.

ثانياً- سيرته:

أ- التعريف به:

الشيخ العلاّمة أحمد بن سليمان بن عبد الله بن أحمد بن العالم الكبير النظر بن سليمان ابن النظر[١٤]، عالم من كبار علماء عصره، تفقّه في الدين، وأعمل فكره فيه، اتجه إلى الاهتمام بعلم الشريعة، عقيدةً وفقهاً، حتى أصبح مرجعاً في الفتوى، وغدا رائداً من رواد الفكر، سار على نهج السلف الصالح، علماً وعملاً، أظهر الفكر الصائب، فأحسن وأجاد، انطلاقاً من عقيدة إسلامية صافية، تمحور فكره حولها، يدفعه الحرص حفاظاً على معالم الحق، قولاً وعملاً، لتبقى قناديله مضيئة، فلم يتهاون في حق من حقوق الله، وأصبح من أهل نعمته وفضله، حتى أنه استشهد في سبيل مبدئه.

شغل العلاّمة أحمد بن النظر، اهتمام العلماء والكتّاب العمانيين وغيرهم، وكلّهم مجمعين على المكانة العلمية الكبيرة التي تبوأها، وإن انصب اهتمامهم على مكانته العلمية دون أن يفصلوا القول فيه وفي حياته وسيرته، كأن يقول أحدهم: "هذه ترجمة الشيخ العالم الفقيه الفصيح، المصقع النبيه، الناظم المفلق الوجيه، صاحب الدعائم، أحمد بن النظر السموئلي العماني المحبوبي الإباضي، الذي نظم الشعر فأجاده، وأخذه

بعناية، فتصرف فيه على ما أراده، فلا يشق له غبار في هذا المضمار، ولا يلفى له فيه عثار، فنظم الشريعة الشريفة في سلك المعاني والبيان، وصب معانيها على قوالب البلاغة والتبيان، فأنشدت الأعيان شعره في النوادي، وغرّدت به الحداة في البوادي في عمان وغيرها من البلدان، فلله درّه من ناظم، إنه أشعر العلماء وأعلم الشعراء..."[١٥].

ب- نسبته:

ينسب الشيخ أحمد إلى آل النظر في سمائل، وهم من مشاهير أهل العلم والفضل والصلاح في عمان، حيث أنجب هذا البيت نخبة من رجال العلم منهم: "جدّه الشيخ عبد الله بن أحمد بن النظر بن سليمان بن النظر، قاضي القضاة في (دما)"، وكانت (دما) في ذلك الوقت زاهرة بالعلماء والأخيار، يجتمعون فيها من كل ناحية... كان الشيخ عبد الله بن أحمد مؤلفاً، ألّف كتابه "الإنابة في الصكوك والكتابة" أربع مجلدات، وكتاب "الرقاع في أحكام الرضاع" مجلدان[١٦]. ومن علماء آل النظر أيضاً، جدّه الشيخ العلاّمة النظر بن سليمان بن النظر، وكان عالماً كبيراً، ومشهوراً بين العلماء والأخيار، وكان من قضاة عمان، وإلى ذلك يشير العلاّمة نور الدين السالمي بقوله: "وفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة مات القاضي أبو محمد النظر بن سليمان، وذلك يوم الخميس، وهو جدّ أحمد بن النظر، وإليه ينسب آل النظر"[١٧].

وتجدر الإشارة هنا، إلى وجود بعض الاختلاف في المصادر التاريخية العمانية في نسب آل النظر، يصل إلى حدّ التباين، بل التناقض أحياناً، وفيما يأتي عرض سريع ومختصر لما جاء في تلك المصادر:

أ- أورد المؤرخ العماني المعروف "ابن رزيق" في مخطوطته الشهيرة "الصحيفة القحطانية" أن الشيخ أحمد بن النظر من النعب، وفي ذلك يقول: "وبنو النظر من النعب"[١٨].

ب- ذكر الإمام السالمي في سياق ترجمته للشيخ أحمد بن النظر، أنه ينتسب إلى النّعب، وقال: "أحمد بن سليمان بن عبد الله بن أحمد بن النظر بن سليمان بن النظر الناعبي"[١٩].

جـ- يتفق المؤرخ المعاصر الشيخ سالم بن حمود السيابي في كتابه "إسعاف الأعيان" ص ١٦٦ والشيخ محمد بن راشد الخصيبي في "شقائق النعمان" مع السالمي وابن رزيق في انتساب آل النظر إلى النّعب[٢٠].

د- أورد الشيخ سيف بن حمود البطاشي في كتابه "إتحاف الأعيان" رواية أخذها من مخطوطة لمؤلف مجهول، تخالف الروايات السابقة، وترجع نسب آل النظر إلى قبيلة سليمة بن مالك بن فهم، ويقول: "إلا أن الذي وجدته في بعض كتب المتأخرين ما يدل على أن بني النظر من سليمة بن مالك بن فهم، وأن الذين كانوا منهم بسمائل، وقعت عليهم حادثة، من آل عمير، قتلوهم في مقايضهم بسمائل، ... وجميع بني سليمة الذين هم "بسرور" و"وادي العق" فهم من أولاد النظر، قتلهم آل عمير فتكاً في مقايضهم بسمائل..."[٢١]. وفي سياق وصفه للحادثة وشرحه لها، يشير الشيخ البطاشي إلى انقراض آل النظر، على يد آل عمير بقوله: "وبوقوع هذه الحادثة من آل عمير، قضي على البقية الباقية من بني النظر بسمائل، بعد حادثة قتل الشيخ وإحراق كتبه، أيام خردلة الجبار، فكان آل عمير بارتكابهم هذه الجريمة، خردلة الثاني بالنسبة لبني النظر"[٢٢].

هـ- يعود الشيخ الخصيبي ويشير في مكان آخر، في كتابه "شقائق النعمان" إلى أن بني النظر انقرضوا وانصرموا في ذلك الزمن الذي فيه الشيخ ابن النظر، ولعل الجبار الذي قضى على هذا العالم قضى عليهم عن آخرهم، أو جبار آخر من جبابرة الأرض، وتوجد قبورهم في الأموال، ولم نعثر على

تاريخ يكشف عن حقيقة أمرهم، بعد تلك القضية الواقعة من الجبار خردلة[٢٣].

بعد استعراض هذه الروايات ومقارنة مضامينها، وتناولها بالدراسة والتحليل وفق القواعد والأسس المعتمدة في منهجية البحث التاريخي يمكننا وضع الاستنتاجات الآتية:

١- تؤكد روايتا الشيخ الخصيبي، والبطاشي على انقراض بني النظر، وإن اختلفا في مسألة تحديد المسؤول عن تصفيتهم، والعهد الذي وقعت فيه، إذ تشير رواية البطاشي إلى آل عمير، بينما تشير رواية الخصيبي إلى خردلة الجبار، وهنا لا يمكننا إلا أن نوافق على ذلك بصرف النظر عن من أبادهم، وخاصة أنه لا وجود لقبيلة آل النظر في عمان منذ بضع مئات من السنين.

٢- لا يمكننا أن نؤيد ما أشار إليه الشيخ الخصيبي في روايته بأن تصفيتهم وقعت زمن مقتل الشيخ أحمد بن النظر على يد خردلة بن سماعة الجبار، فهذا أمر مستبعد، ولو جرت تصفيتهم على يده لجاءت أخبارها في المصادر التاريخية العمانية مقرونة بأخبار قتله للشيخ أحمد بن النظر، ولما أغفلها المؤرخون العمانيون، غير أن الشيخ الخصيبي أبقى باب الاحتمالات مفتوحاً عندما قال: "أو جبار آخر" وبناء عليه نستطيع أن نرجّح رواية قتلهم وتصفيتهم فيما بعد على يد آل عمير وفق ما ذكر الشيخ البطاشي: " قبل ظهور اليعاربة، أي بعد مقتل الشيخ أحمد بمئات السنين"[٢٤].

٣- هناك دليل آخر على أن تصفية آل النظر لم تكن في عهد خردلة أو على يده، أورده الشيخ البطاشي في ترجمته للشيخ القاضي عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عمر السموئلي، حيث قال: "كان في زمانه من العلماء، عمر بن محمد بن عمر بن أحمد بن النظر، وذكر أن وفاة الشيخ عبد الله السموئلي كانت سنة ٥٨٩هـ"[٢٥]، مما يؤكد أن بني النظر كانوا ما يزالون في سمائل بعد مقتل الشيخ أحمد بن النظر، وأن تصفيتهم كانت فيما بعد، إذا ما علمنا

أن خردلة لم يكن على قيد الحياة في ذلك الوقت، فقد قتله أخوه جبر، وبايع المسلمون بالإمامة لمحمد بن غسان، وقد توفي الإمام محمد سنة ٥٧٦هـ، أي قبل وفاة الشيخ عبد الله السموئلي.

٤- ورد في كتاب العلاّمة السالمي "تحفة الأعيان" أن الشيخ أحمد: "هو من بني النظر، فبنو النظر قبيلة، وإليها ينسب لشهرتها"[٢٦]. إذن هم قبيلة مستقلة، وربما تفرعت عن قبيلة النّعب، وهنا تصبح جميع الروايات السابقة التي تنسبهم إلى النعب هي الأقرب إلى الحقيقة، وربما تنفي انتسابهم إلى قبيلة سليمة بن مالك بن فهم، فالروايات التي تنسبهم إلى النعب متعددة، اتفق عليها مؤرخون عمانيون لا يحق لنا الطعن في روايتهم، في حين جاءت الرواية الأخرى يتيمة في مخطوطة لمؤلف مجهول، مما يجعلنا نميل إلى الروايات التي تنسبهم للنعب، والله أعلم.

ج- مولده ووفاته:

تبخل علينا المصادر التاريخية في ذكر تاريخ دقيق لميلاد العلاّمة الشيخ أحمد بن النظر وتاريخ وفاته مما يعطي انطباعاً أولياً مفاده أن تحقيق ذلك مسألة في غاية الصعوبة والتعقيد، وخاصة أن هناك مصادر تقول: إنه عاش في القرن السادس الهجري وأخرى في القرن السابع الهجري، وجميعها تؤكد أن حياته دامت خمساً وثلاثين عاماً لا أكثر ولا أقل.

غير أننا بعد الاطلاع على غالبية الروايات الواردة في المصادر التاريخية في هذا الموضوع، وبعد مقارنة بعض الأحداث التي وقعت في عمان في عصر الأمير خردلة ابن سماعة بن محسن النبهاني (قاتل الشيخ أحمد بن النظر) وصلنا إلى نتيجة تؤكد أن الشيخ أحمد بن النظر ولد وعاش في القرن السادس الهجري، وأنه قتل (رحمه الله) بين عامي ٥٤٩هـ- ٥٥٧هـ، على وجه الدقة، وفيما يأتي أهم خطوات الدراسة التي أوصلتنا إلى هذه النتيجة:

١- أشار الإمام السالمي إلى أن الشيخ أحمد بن النظر ولد في القرن السادس الهجري، وقال: "ولد بمدينة سمائل في القرن السادس الهجري، نشأ وتربّى في بيت علم، تخرّج منه علماء أجلاّء..."(٢٧).

٢- يتفق الشيخ الخصيبي مع الإمام السالمي في تحديد عصر الشيخ أحمد بن النظر حين قال في "شقائق النعمان": "وممن قال الشعر في القرن السادس الهجري الشيخ العلاّمة أحمد بن سليمان..."(٢٨).

٣- أورد الشيخ البطاشي في كتابه "إتحاف الأعيان" تاريخاً أكثر دقة عندما حصر فترة حياة الشيخ ابن النظر في الثلث الثاني من القرن السادس الهجري، ومما قاله في ذلك: "والذي تبادر لي من قصر حياته أنه من علماء الثلث الثاني من القرن السادس الهجري، مع أن الناظر في تاريخ وفاة جدّ جدّه الخضر بن سليمان في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، يستبعد ذلك، ولعل ما ذكرته هو الأقرب إلى الصواب، بدليل أن الشيخ محمد بن وصاف شارح الدعائم ممن أدرك الشيخ العلاّمة أبا علي الحسن بن أحمد بن محمد بن عثمان العقري النزوي الذي توفي سنة ٥٧٦هـ، وأرى العلاّمة عثمان بن أبي الأصم، في الجزء السادس والعشرين من كتاب "التاج" الذي فرغ من تأليفه سنة إحدى وستمائة، يستشهد بأبيات من كتاب الدعائم، ومن شرح ابن وصاف عليها، فدل ذلك أن زمن ابن النظر... بين وفاة جدّ جدّه ونشأة ابن وصاف في الثلث الأخير من القرن السادس، لا كما توهمه بعضهم أن ابن النظر عاش في القرن السابع"(٢٩).

٤- ذكر في مقدمة شرح الدعائم التي وضعها المحقق عبد المنعم عامر ما يأتي: "إنه ومما يدعو للأسف أن تاريخ حياة ابن النظر غير معروف، فمن الباحثين المؤرخين من يرى أنه عاش في منتصف القرن الخامس الهجري، ومنهم من يرى أنه عاش قبل تولي الإمام محمد بن غسان الذي نجح في تحقيق

الوحدة الوطنية ضدّ محاولات النبهانيين وحلفائهم أهل الإحساء، وكان ذلك في القرن الخامس الهجري، ومنهم من يربط تاريخ حياته بإمامة خنبش بن محمد، وكل هذا استنتاجات غير محددة المعالم"(٣٠).

أما ما يخص وفاته (رحمه الله) فإن المصادر التاريخية العمانية، تجمع على أمر واحد، وهو أنه قتل بأمر من خردلة بن سماعة بن محسن الجبار، وهو أحد أمراء بني نبهان، كان يحكم سمائل في حينها، وبلغت معاناة أهلها حدّاً لا يطاق، بسبب تسلطه وجبروته وظلمه، وفيما يلي نص الرواية نقلاً عن الإمام السالمي: "وخردلة هو الذي قتل الشيخ ابن النظر، وسبب ذلك أن ابنة أخ للشيخ يقال لها عائشة بنت محمد بن راشد من بني النظر تزوجت برجل من بني النظر أيضاً، على خمسين محمدية فضية، فأرسل خردلة جندياً لأخذ نصفها من الشيخ أحمد، فمنعه الشيخ من ذلك، فأرسل خردلة جنداً كثيراً يدعونه إلى حضرته، فلما مثل بين يديه، طالبه بالدراهم، وتهدده وأغلظ عليه. ومن بعض قوله: كنا أردنا منك الخمسين فقط، والآن لا يكفينا إلا دمك، قال الشيخ: الأمر لمن خلقك لا لك، فقال: "أتهزأ بي؟ فأشار على بعض الجند أن ألقوه من هذه الكوة، فكتفوه وألقوه، وكانت كوّة قصره شديدة العلو، فوقع إلى الأرض ميتاً رحمه الله"(٣١). وقيل: "إنه كتّف بعمامته ورموه من كوّة البرج المقابل لمقصورة "الرنز" الذي بها مسجد الصاروج، ودفن بالمال المسمى "السنيبيق" غربي مسجد "العبطة" بسفالة سمائل، وكان مسكنه بالموضع المسمى "الحجل:" قريباً من مسجد خميس"(٣٢).

إن أول ما يثير الانتباه لدى دراسة وتحليل الروايات السابقة، هو تباين هذه الروايات واختلافها الكبير في تحديد الفترة التي عاش فيها الشيخ أحمد بن النظر، وتشكّل قضية حصرها بين ثلاثة قرون، على نحو ما رأينا (القرن الخامس والسادس والسابع) مشكلة حقيقة، إذا ما أخذنا بالحسبان مسألة قصر المدة التي عاشها ابن النظر والتي لم تتجاوز خمساً وثلاثين سنة، كما تؤكد الروايات نفسها تبقى عملية إجراء دراسية مقارنة لحادثة

قتل الشيخ مع أحداث أخرى وقعت في تلك الحقبة من التاريخ العماني مصدر الأمل الأساسي إن لم نقل الوحيد في إيجاد تاريخ تقريبي لمولده ولاستشهاده.

ولما كان قتل الشيخ أحمد بن النظر في فترة شهدت فيها عمان صراعاً عنيفاً بين الإمامة وملوك النباهنة، فدبّت الفرقة بين الناس، وانقسموا بين مؤيد لهذا الفريق أو ذاك، ومن الطبيعي أن يقف الفقهاء والعلماء إلى جانب الإمامة، فإن من الصحيح القول: إن سبب قتل خردلة لأحمد بن النظر الذي أجمعت عليه المصادر العمانية لم يكن السبب الوحيد، وإنما كانت هناك أيضاً أسباب ودوافع سياسية ودينية أخرى، جعلت خردلة الجبار يستغل رفض الشيخ تسليمه مهر عائشة بنت النظر، ولم تكن هذه الحادثة إلا سبباً مباشراً، وتتويجاً لأسباب سبقها يمكن أن تتمثل في الآتي:

١- لم يكن الشيخ أحمد بن النظر شخصاً عادياً من عامة الناس، بل كان عالماً من علماء عصره، له مكانته السياسية الدينية، وموقعه الاجتماعي، وسليل أسرة كريمة، عرفت بالتدين والصلاح، وأنجبت نخبة من علماء عمان وفقهائها، على نحو ما رأينا سابقاً – مما جعله في موضع النخبة في المجتمع، ورمزاً من رموز المعارضة للنظام السياسي الذي جاء به النباهنة، فرفض الرضوخ لأمير تجمع المصادر التاريخية على أنه كان جباراً طاغية ظالماً للرعية، يأخذ أموال الناس ظلماً وعدواناً.

٢- إذا كانت مسألة رفض الشيخ أحمد تسليم مهر ابنة أخته لخردلة الجبار السبب في قتله، فما السبب الذي دفع خردلة إلى إحراق مؤلفات الشيخ أحمد؟ "ولما قتل أمر خردلة أن يُدخَل إلى داره ويؤخذ ما فيها، فأخذت كتبه، وأحرقت(٣٣). والجواب على هذا السؤال يسير، فالشيخ أحمد فقيه، عالم، عنيت مؤلفاته بالفقه الإباضي المرتبط بالتنظيم السياسي والعقدي، رغبة من خردلة في التخلص من فكره بإحراق كتبه كما تخلص منه قبل ذلك بقتله؟.

٣- شكل رفض الشيخ أحمد بن النظر أوامر خردلة برفض تسليم المهر لمبعوثه تحدياً كبيراً، وظاهرة خطيرة لا يمكن السكوت عليها من جانب أمير ظالم تعوّد على قهر الناس وإخضاعهم لجبروته، وبعد ما أحضره الجنود خاطبه خردلة قائلاً: "والآن لا يكفينا دمك" فردّ عليه الشيخ بكلمات مليئة بالإيمان والتحدي، قائلاً: "الأمر لمن خلقك لا لك"(٣٤). تلك هي صرخة حق انطلقت من حنجرة معارض، فأمر خردلة بقتله حتى لا تشكّل سابقة خطيرة، فيجعله عبرة لغيره.

تلك هي أسباب أخرى تضاف إلى السبب المذكور لقتله، وفقدان الكثير من جواهر علمه، ليبقى شعاعه بين ما بقي من سطور كتابه "الدعائم"، ولا يمكن أن يفسّر قتله إلا من باب أنه تخلص من قطب من أقطاب المعارضة القوية لحكم خردلة والنباهنة آنذاك.

ثالثاً- ما وصل إلينا من أخباره:

المتتبع لسيرة الشيخ أحمد بن النظر يمكن له أن يلاحظ منذ البداية أنه واحد من خيرة علماء عمان ومشاهيرها في القرن السادس الهجري، نظراً لما اتصف به من سمات أهل العلم والمعرفة، لاسيما في مجال العقائد والفقه والأدب، ويبدو أنه تبحّر في العلم في سن مبكر بفضل ما أعطاه الله من ذكاء، ووهبه من قدرة على التفكير والإبداع.

وهذا يؤكد النتاج العلمي الغزير الذي خلّفه، واهتمام جمهرة من العلماء بعلمه واعتدادهم بآرائه، جاء في مصباح الأحاديث للشيخ جابر بن عبد الله الأزكاني: "أن الشيخ ابن النظر تبحّر في العلم، وشاعت تصانيفه في الآفاق"(٣٥).

كما وصفه الشيخ محمد بن راشد الخصيبي بقوله: "كان علاّمة، حافظاً، واعياً، مضطلعاً بفنون العلم، بحراً زاخراً في اللغة العربية... آية في نظم الشعر، وهو أحد الثلاثة المترجم عنهم هنا الذين هم أعلم الشعراء، واشعرا العلماء...(٣٦).

وجاء في مخطوطة "خزانة الأخبار": "وكان أحمد من أجود الناس حفظاً، يتعلم عند الشيخ مبارك بن سليمان بن ذهل، ومنه تعلّم الشعر وحذا حذوه، إلى أن قال: "وكان عالماً بأشعار العرب وسيرتهم وتواريخهم، ومحاوراتهم، ناهيك عن علم اللغة التي أخذها بحذافيرها... وفرّقت قصائده في البلدان منها التي في الولاية والبراءة، غير اللامية المشهورة، ومنها في الصلاة وفي الأحكام أكثر من أربع قصائد"، وبلغني عمن أثق به أن له قصيدة في الضاد والظاء نحو مائتي بيت[٣٧].

اهتم الشيخ أحمد في بداية حياته بالغزل، فكان له ديوان فيه، إلا أنه اتجه نحو علوم الدين، فتبحر فيها، ووقف على دقائق علوم معرفة الله تعالى، فمزق ديوانه، وانصرف إلى نظم قصائده في علوم العقائد والشريعة، مازجاً بين فكره وأدبه، وفقهه وعلمه، فجاءت مقدمات قصائده حاملة لفكره، معبّرة عن عواطفه، حاملة لمشاعر نفسه المتوثّبة نحو المعالي من الأمور، ومن أراد المزيد فلينظر إلى مقدمة قصيدته الميمية، يجد ذلك جليّاً ولاسيما حين يقول:

تأوبني داءٌ دخيل فلم أنم — وبتُّ سميراً للهموم وللهمم
وما بي عشقٌ للذين تحمّلوا — ولا جزع من بينهم لا ولا سقم
ولكن لما فاهوا به وتكلّموا — من الإفك والبهتان في الواحد الحكم[٣٨]

ولم تقف مقدرته عند حد نظم الشعر فحسب، بل تعداه إلى التأليف ووضع المصنفات، وأبدع – دون شك – أيضاً في هذا المجال، وله أربعة تصانيف هي "سلم الجمان في سيرة أهل عمان" مجلدان، و"الوحيد في نقد التقليد" مجلدان، و"مرآة البصر في جمع المختلف من الأثر" أربعة مجلدات، وأخيراً كتاب "الدعائم"[٣٩]، غير أن تصانيفه هذه أحرقت بعد قتله، ويشير الشيخ الخصيبي إلى أنه وجد قطعة من تساويد كتاب "مرآة البصر في كتاب جمع المختلف من الأثر"[٤٠]، ومن المؤسف حقاً، أن يتحول هذا النتاج العلمي الضخم لعالم مثل الشيخ أحمد بن النظر، وبفعل فاعل متعمد، إلى طعمة

للنيران على يد الطاغية خردلة، فضاعف بذلك جريمته، فهو لم يحرمنا من عالم لو قدّر الله له عمراً أطول ألا يبخل علينا بعلمه، وعطائه، بل وحرمنا أيضاً من الثمرة الطيبة التي قضى الشيخ في إعدادها زهرة شبابه.

وبما أن كتاب "الدعائم" هو النتاج العلمي الوحيد الذي وصلنا من أعمال الشيخ، ونظراً لما يحتويه من مادة علمية يجدر بنا أن نلقي الضوء على أهم المواضيع التي تناولها.

وقفة على الدعائم:

حظي كتاب "الدعائم" بنصيب وافر من الشرح والتوضيح على يد نخبة من أهل العلم، فقد وضعوا عليه شروحاً وحواشٍ ومختصرات، قلّما حظي بها مُؤَلَّفٌ آخر من المؤلفات، فقد شرحه العلاّمة محمد بن وصاف في كتاب "الحل والإصابة"، وهو الذي اعتنى بجمع قصائده(٤١). كما شرحه أبو القاسم البرادي في كتابه "شفاء الحاتم على بعض الدعائم" والعلاّمة أحمد بن عبد الله الرقيشي في كتابه "مصباح الظلام" في مجلدين، والبدر الشماخي في كتابه "إعراب مشكل الدعائم" والقطب الشيخ محمد بن يوسف أطفيش في شرحه لـ "ديوان الدعائم" كما يضيف أبو القاسم البرادي في كتابه "دعائم ابن النظر" إلى هذه القائمة أسماء علماء آخرين شرحوا بعضاً من قصائده بقوله: "وشرح بعض القضايا منه عالم مغربي من أصحابنا، ولم يكمله، وقد شرح القصيدة اللامية في الحج العالم منصور بن محمد بن ناصر..."(٤٢).

يتضمن كتاب "الدعائم" ثلاثين قصيدة ومنظومة شعرية، تناولت مسائل وقضايا معاصرة في وقتها، تتصل بالعقيدة الإباضية، نظمها بأسلوب بديع، قلّما نجد شبيهاً له في أعمال كبار الشعراء، وجامعة بين روعة الأدب، ونقاء الفكر، وأمانة العلم،

وصدق العاطفة، وفيما يلي عرض نماذج لأهم الموضوعات التي تناولها العلاّمة ابن النظر في كتابه هذا:

أ- التوحيد:

التوحيد هو: "الإيمان بالله واحد بذاته" واحد بصفاته، واحد في ملكه، فرد صمد، وهو الإيمان بوحدانيته والتصديق بها، ذاتاً وصفات وأفعالاً ، خلق العالم العلوي والسفلي والعرش والكرسي، وما فيهما وما بينهما، وجميع الخلائق مقهورون بقدرته، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا مُدَبِّرةٌ معه، ولا وزير، ولا مشير، ولا شريك، ولا نظير، ولا ضرّ، ولا ندّ، يفعل في ملكه ما يريد، يحكم في خلقه ما يشاء"(٤٣).

وقد تناول الشيخ ابن النظر هذه المسألة، ونفى الأشباه والأمثال عن الله تعالى، وفيما يلي بعض مما قاله:

ولكن لما فاهوا به وتكلموا	من الإفك والبهتان في الواحد الحكم
لقولهم لله جل ثناؤه	يد مثل أيديهم تعالى ومبتسم
وأن له وجهاً يحد وصورة	وعينا وأذنا ليس في سمعها صمم
وأن أناساً شبهوه بخلقه	لقد عدلوه جل ذو العز بالأمم
وداود ماذا الأيد فالأيد قوة	وأما الأيادي فالصنائع والنعم
وقال وكلٌ هالك غير وجهه	وأين تولوا وجهه تجدوه ثم
كقولك وجه الأمر للأمر نفسه	وما وجهه وجه يحد كما زعم
وللوجه تفسير سوى ذلك كله	من الجاه والمعنى من الفعل فانحسم
وأما كلام الله فهو كتابه	كذلك قال الله للطاهر الشيم
وقال وجوه ناظرات لعطفه	ورحمته يوم التغابن والندم(٤٤)

إن أجمل ما يميز هذه الأبيات أنها عكست غيرة ذاتية في حق المولى سبحانه ضمن أبيات شعرية، مصحوبة بعاطفة إيمانية تتصل بمدح ذي الجلال والإكرام، حين نفى

عنه التشبّه والتجسيد والحلولية، كما نفى عنه قول من ألحد فيه، وشبّهه بالأنام، ووصفه بغير صفاته، وأجاد بأصول الكلام، وأفهم كل ذي عقل ودين أن توحيده جلّت قدرته هو أصل العلوم وأجلّها وأكرمها وأشرفها وأصدقها ودعامتها وقوامها، فضلاً عمّا يلحظه القارئ من جودة السبك في الجمل: لاحظ ردّه بالجملة الاسمية التي تقطع بإيمانه الثابت: الأيد قوة، الأيادي الصنائع، كلٌ هالك غير وجهه إلى آخر الأبيات مما تدل على معرفته الوطيدة بدلالة التركيب.

ويفسر استواء الله عزّ وجلّ على العرش بأنه تفرّدَ سبحانه وتعالى بالأمر والخلق دون خلقه، وهو الواحد الفرد الصمد، الأبدي الأزلي.

وقال على العرش استوى فاستواؤه　　　عليه استواء الملك للفرد ذي القدم

فالاستواء هنا هو استواء الملك والقدرة والتدبير للواحد الأحد، الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، والفرد هنا هو تفرّده بالأمر دون خلقه.

وقولك باسم الله فالاسم زائد　　　وليس له معنىً سوى الله ذي الكرم

تبارك قدماً اسم ربك ذي العلا　　　كذا قال في القرآن مبتدع القدم

ومن سال عن كرسيه فهوة ملكه　　　وليس بكرسي من التبر والأدم[٤٥]

أي اسم الله سبحانه وتعالى دلالة عليه، وقديم به نعرفه، فهو الدلالة عليه كصفاته. وكرسيه هو ملكه سبحانه وتعالى، وتحكمه بهذا الكون وسيطرته عليه بعدما أبدع الأشياء، أي ابتدأ خلقها، ولا مبتدع سواه، وليس مثله شيء، وتأمل ردّه على ما قيل بجمل اسمية منفية بليس، وهذا مؤكد في النفي وأقوى في الردّ.

٢- معرفة الخالق ونفي الظهور والتجلّي والرؤية عنه تبارك وتعالى:

التجلّي معناه: الظهور على الشيء، وهو على وجهين: إنما أن يظهر جوهره، وهذا محال في حق الله تعالى، والثاني أن يظهر أمره وآيته ودلالته، وهو المقصود كما في قوله تعالى: "فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكاً" بمعنى تجلى أمره وآيته[٤٦]:

ومما قاله الشيخ أحمد بن النظر في معرفة الخالق:

معرفـــــة الخـــــالق موجـــــودة ... فـــي الخلـــق بالحكمـــة والعـــدل
لا عـــذر للمخلـــوق فـــي جهلهـــا ... إن كـــان ذا فهـــم وذا عقـــل
لـــيس بـــذي جســـم فيضـــطره ... فقـــرٌ علـــى المنـــزل والرحـــل
وإن يكـــن الرحـــل مـــن قبلـــه ... فربنـــا الخـــالق للقبـــل
وقـــولهم جســـم دليـــل علـــى ... التـــأليف والتبعـــيض والوصـــل
لا يوصـــف الله بجســـم ولا ... بشـــكل ولا مثـــل ولا عـــدل
لـــم يـــزل الله ســـميعاً بـــلا ... آلـــة ســـمع جـــلّ ذو الفضـــل (٤٧)

بمعنى معرفة حجة الخالق على الخلق تكمن فيهم بالحكمة من الآيات البينات، ومن لا يعرفها ليس بموحد، وعلى كل مسلم موحد معرفة الله تعالى وأنه ليس كمثله شيء. والله تعالى لا يشبه بالأجسام، لأن الأجسام محدثة تحتاج إلى القرار والمكان، وتجري عليها الزيادة والنقصان، والله تعالى مُحدِثٌ، وليس بمُحدَث، أي خالق، وليس بمخلوق، ولا يشبه بالأشياء، فهو صانع الخلق، ومنزه عن الخلق والمادة، والمقصور بكلمة (سميعاً) أنه مريد بقدرته وعظمته، وهذا ما يؤكده الوزن الصرفي لهذه المفردة.

٣- القضاء والقدر:

القضاء والقدر هما خلقان لله تعالى، ويجب الإيمان بهما. والقضاء هو ما قضي في اللوح إجمالاً، فهو حكم الله الأزلي بما يعلمه من الأحوال الممكنات، والقدر هو تحديد كل مخلوق بحدّه الذي يوجد عليه من حسن وقبيح ونفع وضرر، وما يحويه من زمان ومكان، وما يترتب عليه من ثواب وعقاب(٤٨).

في القصيدة الثالثة للشيخ أحمد بن النظر محاكاة رائعة لهذا المعنى، وفيها يقول:

أيهـــا الســـائل عـــن علـــم القـــدر ... وعـــن الحجـــة فيـــه والأثـــر
إن ســـر الله فـــي الأرض القـــدر ... فـــدعوا الإغـــراق فيـــه والنظـــر

خلق العالم ذو العز وما أحدث العالم من خير وشرّ
فالأفاعيل اكتساب للورى ومن الرحمن خلق وفطر[٤٩]

فالقدر فعل الله تعالى، لأنه وحده هو القادر على فعل كل شيء بإرادته، لذلك ينهى الشيخ أحمد بن النظر المسلمين عن مسألة التفكير بالقدر، والتسليم بأنه سرّ من أسرار الله تعالى في هذه الأرض، وأنه من فعله تعالى، وأن المقدور أفعال العباد من خير وشرّ.

إن قراءة في هذه الأبيات تقفك على تمكن لغوي مثلاً: الجواب يتعدد بـ (إنّ) ليضيف تأكيداً على دلالة الجملة الاسمية ليقطع على السائل الذي يريد الخوض في هكذا أمر.

أنت لا تستطيع شيئاً غير ما شاءه الله المليك المقتدر
قال لي فاكفر مما شاء لي قلت إن القول فيه مختصر
شاءه الله ذميماً منكراً غير مغلوب عليه مقتهر[٥٠]

بمعنى لا تستطيع أيها الإنسان أن تفعل شيئاً في هذه الدنيا من دون مشيئة الله العلي القدير. فكل شيء مرتبط بقدرته وإرادته. وفي هذا دعوة إلى الإيمان بالقدر والإقرار به، عند تركيب (أنت – لا تستطيع...) لتعرف أهمية تقديم (أنت) ثم مجيء النفي بـ (لا) ثم (غير) ليظهر الإنسان عن فعل ما لا يريده الله ويقدره.

ثم لم يتركه إن بينه ما له النفع وما فيه الضرر
جلّ ذو العرش فما يشركه أحد فيما قضى أو ما أمر
قال فالخير من الله ومن نفسك الشر أجبني وأحر
قلت كل منه لا من أحد جلّ عن كل شريك ووزر[٥١]

إن الخير من الله تعالى، لأن الله جلّ جلاله يضاف إليه أحسن الأسماء والأفعال. والشر من العبد يفعله بنفسه لا بعلم ومشيئة، ولو كان الفعل من خلق العبد لم يكن لله

فيه خلق ولا صنع، ولم نشق به، أي لم نتعب فيه، ولم نعذب به، فالصحيح أن نقرّ بأن الله خلقه، ونحن اكتسبناه، والاكتساب هو الذي يجعلنا نتحمل المسؤولية، ويجعل الشر من أنفسنا، واختيارنا بين أمرين: الخير والشر، حينما منحنا الله العقل لنفاضل بينهما.

٤- مسألة خلق القرآن وإشكالية نسبة النونية إلى ابن النظر:

أخذت مسألة خلق القرآن حيزاً من تفكير علماء المسلمين، وشكّلت مصدر اختلاف بينهم منذ القرن الثاني الهجري، ويعود أصل الاختلاف إلى الجدل في الصفات الإلهية، حيث أجمع العلماء على أن القرآن كلام الله، وأن الكلام من صفاته، لكنهم اختلفوا في هذه الصفة. أهي صفة الذات؟ أم صفة الفعل.؟ وبناءً عليه انقسموا إلى فريقين في هذه المسألة، فمن قال: إن هذه الصفة هي صفة الذات، قال: بقدم القرآن، ومن قال: إنها صفة الفعل، قال بخلق القرآن.

ويبدو أن الشيخ أحمد بن النظر هو واحد من العلماء الذين تناولوا هذه المسألة، فمن يطلع على شرح كتاب "الدعائم"، وبصورة خاصة على شرح العلاّمة الفقيه محمد بن وصاف، على اعتبار أن ابن وصاف هو الذي جمع قصائد الشيخ أحمد، ووضعها بين دفتي كتاب "الدعائم"، وأول من شرحها يستطيع القول: إن ابن النظر من القائلين بقدم القرآن للوهلة الأولى في أقل تقدير، وفيما يلي بعضاً مما جاء في القصيدة الرابعة المعروفة بـ "النونية" التي تنسب إليه:

يا من يقول بفطرة القرآن	جهلاً ويثبت خلقه بلسان
لا تنحل القرآن منك تكلفاً	ببدائع التكليف والبهتان
هل في الكتاب دلالة من خلقه	أو في الرواية فأتنا ببيان
الله سماه كلاماً فأدعه	بدعائه في السرّ والإعلان
أو، لا فهات وما أظنك واجدا	في خلقه يا غرُّ من برهان
إن كان من إنّا جعلناه فما	في الجعل إن أنصفت من تبيان

فبأي هذا الجعل قلت بأنه خلق تبارك منزل الفرقان
أعظمت إفكا وادعيت خطيئة والله أحدثه إلى الإنسان(٥٢)

غير أن المحقق عبد الرحمن بن سليمان السالمي يشير في شرحه لرسالة الإمام نور الدين السالمي: "روض البيان وفيض المنان في الردّ على من ادّعى قدم القرآن" إلى "أن صحة نسبة قصيدة النونية القائلة بقدم القرآن إلى الشيخ أحمد بن النظر محل جدل، لأن فيها آراء تناقض آراء ابن النظر في بعض المواضيع، ناهيك عما تحويه من التشنيع والسبّ الصريح للقائلين بخلق القرآن"(٥٣).

ولقد تطرق الإمام نور الدين السالمي (رحمه الله) في رسالته هذه إلى مسألة خلق القرآن، وكان له موقف بيّن منها، حيث قال" "أقرّت الأمة بأن الله خالق كل شيء، ولم يلزم الداعي إلى الدين تفصيل الأشياء المخلوقة شيئاً فشيئاً، حتى يقول لهم اعتقدوا أن القرآن مخلوق، وأن الأرض مخلوقة، وأن الأسماء مخلوقة، وهكذا إلى مالا نهاية له في طوق البشر، فإذا ظهر أن الدين كامل، وأن القائلين بقدم غير الله عز وجل، وينفي الخلق عن بعض مخلوقاته، خارجون عن كمال الدين لنقضهم الإجمال الذي كان في عصره صلى الله عليه وسلم، فلو كان القرآن خارجاً عن الأشياء المخلوقة بحكم، لبيّن لهم رسول الله تلك الخصوصية التي فيه، ولما تركهم في إشكال من أمرهم، لأن العلة التي أوجبت خلق الأشياء هي موجودة في القرآن، فتركهم بلا مخصص لهذا العموم مع إرادة التخصيص له، مما لا يجوز في حكمة الله تعالى"(٥٤).

وبناءً عليه وانطلاقاً من واقع فهم الإمام السالمي وإدراكه العميق لفكر من جاء قبله من أهل العلم كابن النظر، انبرى إلى إثبات عدم صحة نسبة النونية إلى ابن النظر، ودوّن في رسالته "روض البيان" أدلّة وبراهين استمدها من قصائد ابن النظر نفسه، تؤكد أن النونية ليست من نظمه، وذكر أمثلة من رائية ابن النظر تناقض الأفكار التي وردت في النونية، ومن هذه الأدلة:

قال فالجعل هو الخلق أم (م) الجعل شيء غيره فيما ذكر
قلت جعل الله خلق كله ومن الناس مقال مشتهر(٥٥)

حيث جَعَلَ جَعْل الله خلقاً، وهذا ما يتناقض تماماً مع ما جاء في النونية:

إن كان من إنّا جعلناه فما في الجعل إن أنصفت من تبيان
قد قال إبراهيم رب اجعل لنا بلدا بفضلك أفضل البلدان
وكذلك فاجعلني مقيماً مخلصاً حق الصلاة لوجهك المنان(٥٦)

كما ذكر مثالاً آخر من ميميته:

وأما كلام الله فهو كتابه كذلك قال الله الطاهر الشيم

يقول السالمي: "وهنا حصر كلام الله عزّ وجلّ في كتابه، فهو ينفي الكلام الذاتي أصلاً، ويجعل صفة الكلام من الصفات الفعلية، وليس من الصفات الذاتية"(٥٧). وفي ذلك إقرار بخلق القرآن، ولا يمكننا أن نقول: إن لابن النظر أكثر من رأي في هذه المسألة مما يجعلنا نقرّ بأن النونية منسوبة إليه، وليست من نظمه، وأنها أقحمت في كتابه، وقد سبق الإشارة إلى أن خردلة الجبار أمر بإحراق كتب ابن النظر بعدما قتله. ولم تكن القصائد التي نظمها مجموعة بين دفتي كتاب، وإنما كانت قصائد موزعة، جمعها الشيخ محمد بن وصاف، الأمر الذي يدفعنا إلى الاعتقاد بأن النونية أقحمت في حينها مع قصائده من غير أن يعلم ابن وصاف أنها ليست من نظم ابن النظر.

حجة أخرى أوردها السالمي تؤكد عدم صحة نسبة النونية إلى ابن النظر، يقول فيها: إن النونية احتوت في مواضيع عدة التشنيع بالقائلين بخلق القرآن وتقبيحهم وتسفيههم، وهذا سبب كافٍ لنفي النونية عن ابن النظر، ويعلل هذا النفي بقوله: "إن ابن النظر عندما حاور المشبهة والقدرية بالحجج والبراهين لم يخرج عن نطاق الفكر إلى السبّ

والشتم الذي لا يليق بالعلماء وذوي المروءة، فكيف ينسب إليه هذا السب والتقبيح؟ وأنه يعلم أن الاختلاف في القول في هذه القضية حسم في عمان منذ القرن الثالث الهجري، وأن الأصول الفكرية للمذهب الإباضي وقولهم في الصفات الإلهية وآرائهم معروفة...[٥٨].

إن ما جاء به الإمام السالمي يعكس حقيقة لا يسعنا إلاّ الإقرار بها، لأنه كان حجة على أهل العلم، ونظراً للبراهين التي اقترنت برأيه في هذا الموضوع. كما أجد نفسي ملزماً أن أتبنى ما جاء به السالمي من أدلة وبراهين، وأن أقدم برهاناً آخر يؤكد أن النونية نسبت إلى ابن النظر، وليست من أعماله.

من المعروف أن الشيخ العالم محمد بن سعيد القلهاتي صاحب كتاب "الكشف والبيان" من علماء القرن السادس الهجري، وأنه من معاصري ابن النظر، وقد استشهد بأبيات من الشعر لابن النظر في التوحيد في كتابه "الكشف والبيان"، وهي:

لا كيف لله تعالى ولا حتى م في الغاية والنقل
وأين تحديد تناءٍ وما لله من بعدٍ ومن قبل[٥٩]

إلاّ أن ما يهمنا من هذا كله هو أن القلهاتي أفرد باباً كاملاً (الباب الأربعون) لنفي خلق القرآن[٦٠]، ولم يستشهد بكلمة واحدة عن ابن النظر في هذا الكتاب. ومن حقنا أن نسأل السؤال الآتي: لو كانت النونية من نظم ابن النظر، وهي في نفي خلق القرآن ما الذي منع القلهاتي من الاستشهاد بها؟!

أعتقد أن الجواب واضح، وأن السالمي تكلم عن جوهر الحقيقة عندما نفى نسبة النونية إلى ابن النظر.

وأخيراً لا بدّ من الإشارة إلى أن السبب الذي دعا القائلين بخلق القرآن إلى القول بخلقه هو إيمانهم بالتوحيد، واعتقادهم أن وصف الله تعالى بصفات قديمة قائمة يفضي إلى القول بتعدد القدماء. فالتوحيد تحرير للعقل الإنساني من الأهواء والمعتقدات التي

لا يتقبلها العقل. والتوحيد الخالص وتنزيه الذات الإلهية العلية ينبع من قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾.

ب- الأرجوزة اللامية:

وقفت على مخطوط تحت رقم (٢٣١٠) في وزارة التراث والثقافة ألّفه الشيخ الفاضل ابن وصاف للأرجوزة اللامية للشيخ أحمد بن النظر نسخ عام ١١٠٣هـ، لذا وقفت على أبيات منها لأبيّن من خلالها كيف صاغ الشيخ أحمد هذه القصيدة لبيان فكر الإباضية تاريخاً، إذ يقول:

نأخذ عن أصل قديم عَدملِ

وفي هذا جملة مسائل:

الأولى: الأصل: الدين، والإباضيون يأخذون أصول دينهم من (قديم عدمل) وهنا أراد أن يذهب بعيداً، فلم يكتفِ بلفظ (قديم)، بل أضاف (عدمل) ليثبت جذوره الموغلة في التاريخ، وذلك أن تصعد للخلفاء والصحابة والتابعين، فشيوخه يأخذون عنهم.

الثانية: هذا الفخر الواضح الذي تنطوي عليه نون المضارع في: (نأخذ).

الثالثة: قدرته اللغوية تتجلى في معجمه، فلفظ (عدمل) يضيف إلى (قديم) إيغالاً وتوكيداً، لأنها تعني (القديم) وزيادة!

وليؤكد هذا القديم يذكر في بيت آخر:

بابن أم عبد وحذيف نعتلي

وابن أم عبد: هو الصحابي عبد الله بن مسعود.

وحذيف: هو الصحابي حذيفة بن اليمان، وقد رخمه في غير النداء ضرورة.

وابني بديل.....

وهذا ما يعزّز (عدمل) في دلالة تاريخية موثّقة بأعلام معروفين في صدر العصر الإسلامي.

ولكي يوضح (نون مضارع نأخذ) يقول:

نحن الإباضيون أسد الغيطل.

ليكون الفخر على مداه بـ (الإباضيون) وبـ (أسد الغيطل)، ثم يسترسل في فخره بما يجسد صورة هؤلاء (الإباضيون) من صفات يتمناها كل مسلم ملتزم بمعجم لغوي يدلل على قدرة لغوية فائقة به حاجة إلى دراسة منفصلة، فالإباضيون:

ينازلون الأبطال – تحت الفسطل الخميس – أجداثهم حواصل الطيور – لا يخافون الموت – رضوا من الدنيا بقوت الأكل – فارقوا الغيد – وسماع الغناء – صم عن اللهو والهزل... إلخ.

لا يقتلون الكبير – ولا يتبعون المدبر – ولا يسبون المرضع أو الطفل – ولا الاغتنام – ولا يعترضون الناس. وكل هذا جرم غير محلل عندهم، ثم يختم أرجوزته بمقطع يبدأ:

لمثل هذا يا أخي فاعمل

لينتقل إلى نصح المسلم في أمور محذراً مما سيؤول إليه بعد الموت وما ينتظره من عذاب في الآخرة.

وهكذا صورة الإباضي هي صورة (الشاري) التي أجملها أبو حمزة في خطبته المعروفة.

ج- من آرائه:

لم يكن الشيخ أحمد بن النظر عالماً في مجال العقائد وشاعراً من نخبة الشعراء فقط، بل كان أيضاً فقيهاً عارفاً. ومن المحزن حقاً أننا حرمنا من جواهر علمه في هذا المجال، ولعل مؤلفاته في الفقه هي تلك التي أصبحت طعماً للنيران بعد مقتله. غير

أننا وجدنا في مخطوطة "خزانة الأخبار" للعلاّمة أبي محمد عبد الله بن محمد بن غسان الحراصي النزوي ما يثلج الصدر، ففي هذه المخطوطة القيمة شواهد كثيرة تثبت أن ابن النظر عمل بالفتيا، وأنه كان فقيهاً من فقهاء عصره. إذ يستشهد صاحب المخطوطة في الردّ على الكثير من المسائل بفتاوي ابن النظر، وسأكتفي بعرض بعض الأمثلة:

١- **مسألة**: ما حكم الخيار المتقدم الذي حكم المسلمون بفساده؟ إذ تعدّى مدته يحكم له بالتحريم؟ **جواب**: لا تنقضي المدّة عندي، لأنه بيع فاسد، كما قال الشيخ أحمد بن النظر: "وكل شيء أصله طاهر فهو على سياسة يجري، وإذا فسد الأساس والأصل فلا عمل للفرع، وللمشتري دراهم حاضرة على القول الذي نحكم به ونعمل عليه"[٦٠].

٢- **مسألة**: ومنه عن رجل باع ماله بيع القطع، فأحال المشتري للبائع ثمن هذا المال عنده ببيع الخيار، ولم يعلم أن فداءه على جربين أو ثلاثة أخرى، فلما صار ذلك المال بيده...، ثم علم قبل أن يفدي من عنده، فطلب النقض. هل له ذلك قبل أن يفدا منه أم ليس له حتى يفدا منه؟

جواب: قال الشيخ أحمد بن النظر:

وإن بدا عيبه من بعد رؤيته ولم يكن حادثاً فالنقض قد وجبا[٦١]

هذا ومن الصعب جداً إن لم نقل من المحال الإلمام بكل القضايا العلمية التي اهتم بها الشيخ أحمد ابن النظر، وكانت له مؤلفات فيها بسبب فقدانها، لكن علينا أن نعترف له بعظيم فضله ونسأل الله العلي القدير أن يجعل علمه في ميزان حسناته.

الخاتمة:

تواجه الباحث – في أي حقل – روايات تاريخية بها حاجة إلى إعادة تركيب[٦٢]، ليستطيع أن ينطلق منها في دراسة موضوعه، من هنا وجدنا سبيلاً لترجيح أن (الشيخ

أحمد بن النظر) عاش، وقتل في الحقبة الممتدة من (٥١٤-٥٢٢)هـ إلى (٥٤٩-٥٥٧)هـ، ولنلقي الضوء على سيرته التي من خلالها نحدد دوره الذي اضطرب فيه المؤرخون لندرة المعلومات فيه، فضلاً عن عمره القصير، لكنه كان مؤثراً وغنياً، وكانت نتائج هذا البحث على الوجه التالي:

- لقد وصلنا إلى تحديد عصره وسيرته بالاعتماد على ما توافر من روايات تاريخية وحاولنا جهدنا بالنقد والتثبيت لنمنحها قوة، وتقديمها خالصة للدارسين.
- ثم عكفنا على بيان ما وصل إلينا من آثاره التي سلمت من الحرق بعد مقتله فكانت:

١- الدعائم: مجموعة قصائد تضم ثلاثين قصيدة ومنظومة، شرحها شيوخ أفاضل، لأنها تعبّر بأسلوب رشيق عن الفكر الإباضي ومنطلقاته مما يقدم صورة جلية لهذا المذهب الذي تعرض كثيراً للتشويه، وما زالت عقابيله حتى الآن.

٢- الأرجوزة اللامية التي تحفظ مخطوطة بوزارة التراث والثقافة تحت رقم (٢٣١٠) ضمت شرحاً لها قام به الشيخ الجليل ابن وصاف جاءت مكملة للصورة الفنية التي كانت عليها قصائد (الدعائم) فضلاً عن بيان المذهب الإباضي، إلاّ أن فيها حماسة فائقة جعلتنا ننتقي منها ما يعزز ما كان عليه الإباضيون في دفاعهم عن مذهبهم، ودحض الأباطيل، وتوضيح المواقف، والأحكام التي يسلمون بها.

٣- وقفنا على بعض آرائه الفقهية، وعرضناها، بهدف استكمال الصورة التي انتزعناها انتزاعاً مما وصل إلينا.

إن البحث العلمي يجد نفسه في مفترق طريقين بإزاء المعلومات الناقصة في أية مسألة تطرح للبحث فيكون:

إما أن يترك الخوض في ذلك حتى تتيسر معلومات إضافية، وإما المخاطرة التـــي لا ينصح بها المنهج لأنها غير مأمونة النتائج.

لكننا من خلال ما تيسر – بعون الله – استطعنا أن نزعم أننا قدمنا صــورة تقريبيـــة تجعلنا نشعر بالفخر بشخصية (الشيخ أحمد بن النظر) موقفاً، وفناً، وفكراً.

الهوامش

(١) الإزكوي، سرحان بن سعيد: تاريخ عمان المقتبس من كتاب "**كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة**"، تحقيقي عبد المجيد القيسي، وزارة التراث القومي والثقافة، ص٧٠.

(٢) حكم بني نبهان: النباهنة، نسبة إلى جدّهم نبهان من العتيك بن الأسد بن عمرو ابن عامر "ماء السماء" من الأزد، حكموا عمان أكثر من خمسة قرون، ولا يُجْحد مكانهم، ولا ينكر مجدهم وشأنهم، وكان عهدهم إلى جانب من القوّة والسطوة والمدنية الآخذة بقسط من الابتكار والإنشاء والعمران. انظر: الخروصي، سليمان ابن خلف بن محمد: **ملامح من التاريخ العماني**، مكتبة الضامري، السيب،الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢م، ص ١٣٥-٢٣٩.

(٣) **عمان عبر التاريخ**، حصاد ندوة عمان في التاريخ المنعقدة خلال الفترة من ٢٤-١٩٩٤/٩/٢٧م، وزارة التراث القومي والثقافة، ص ١١٦.

(٤) **المرجع نفسه**، ص ١٦٦.

(٥) السالمي، نور الدين عبد الله بن حميد: **تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان**، ص٣٥٣.

(٦) السالمي، محمد بن عبد الله، وعساف، ناجي: **عمان تاريخ يتكلم**، المطبعة العمومية، دمشق، ١٩٦٣م، ص ١٤٨-١٤٩.

(٧) الإزكوي، سرحان بن سعيد: **المصدر نفسه**، ص ٧٠.

(٨) القواريت: اسم موضع قرب مدينة إزكي في المنطقة الداخلية من عمان.

(٩) الخراسيني النزوي، أبو محمد عبد الله بن محمد بن غسان: **خزانة الأخبار**، مخطوطة في مكتبة السيد محمد البوسعيدي رقم (٥٥١).

(١٠) فيقا: اسم بلدة تقع على أطراف المنطقة الداخلية من عمان.

(١١) بدبد: مدينة تقع على أطراف المنطقة الداخلية من عمان، قريبة من مدينة فنجا.

(١٢) السالمي، نور الدين عبد الله بن حميد: **تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان**، ص٣٦٠.

(١٣) للمزيد من المعلومات عن وقعة القواريت انظر مخطوطة: "**خزانة الأخبار**" للعلامة أبي محمد عبد الله بن محمد بن غسان الحراصي النزوي.

(١٤) البطاشي، سيف بن حمود بن حامد: **إتحاف الأعيان في تاريخ بعض علماء عمان**، المطبعة الوطنية، مسقط، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ/١٩٨٨م، الجزء الأول، ص ٣٨١.

(١٥) البرادي المغربي النفوسي، أبو القاسم إبراهيم: **دعائم ابن النظر**، (شرح لدعائم الشيخ أحمد بن النظر) مخطوطة في مكتبة معالي السيد محمد البوسعيدي، السيب ، الورقة ١.

(١٦) الخصيبي، محمد بن راشد بن عزيز: **شقائق النعمان على سموط الجمان في أسماء شعراء عمان**، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م، الجزء الثاني، ص ٢٦.

(١٧) السالمي، نور الدين عبد الله بن حميد: **تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان**، مكتبة الاستقامة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، الجزء الأول، ص ٣٤٣.

(١٨) ابن زريق، حميد بن محمد: **الصحيفة القحطانية**، تحقيق وتقديم محمود بن مبارك السليمي، ومحمد حبيب صالح، وعلال الصديق الغازي، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م، ج٣، ص ٢٩٨.

(١٩) السالمي، نور الدين عبد الله بن حميد: **روض البيان على فيض المنان في الرد على من ادعى قدم القرآن**، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان السالمي، مكتبة السالمي، بدية، سلطنة عمان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ٢٧.

(٢٠) الخصيبي، محمد بن راشد بن عبد العزيز: **المصدر نفسه**، ص ٣٢٤.
(٢١) البطاشي، سيف بن حمود بن حامد: **المرجع نفسه**، ص ٣٨٩-٣٩٠.
(٢٢) **المرجع نفسه**، ص ٣٩٠-٣٩١.
(٢٣) الخصيبي، محمد بن راشد بن عبد العزيز: **المصدر نفسه**، ص ٣٣٢.
(٢٤) البطاشي، سيف بن حمود بن حامد: **المرجع نفسه**، ص ٣٩١.
(٢٥) **المرجع نفسه**، ص ٣٩٣.
(٢٦) السالمي، نور الدين عبد الله بن حميد: **تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان**، ج١، ص ٣٦١.
(٢٧) السالمي، نور الدين عبد الله بن حميد: **روض البيان على فيض المنان في الرد على من ادعى قدم القرآن**، ص ٢٧.
(٢٨) الخصيبي، محمد بن راشد بن عبد العزيز: **المصدر نفسه**، ص ٣٢٤.
(٢٩) البطاشي، سيف بن حمود بن حامد: **المرجع نفسه**، ص ٣٨١.
(٣٠) ابن وصاف، محمد: **شرح الدعائم**، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة التراث القومي والثقافة، الجزء الأول، ص ١، (من المقدمة).
(٣١) السالمي، نور الدين عبد الله بن حميد: **تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان**، ج١، ص ٣٦١.
(٣٢) البطاشي، سيف بن حمود بن حامد: **المرجع نفسه**، ص ٣٨٧.
(٣٣) البطاشي، سيف بن حمود بن حامد: **المرجع نفسه**، ص ٣٨٧.
(٣٤) **المرجع نفسه**، ص ٣٨٧.
(٣٥) الخصيبي، محمد بن راشد بن عبد العزيز: **المصدر نفسه**، ص ٣٢٥.
(٣٦) **المصدر نفسه**، ص ٣٢٤.
(٣٧) الخراسيني النزوي: أبو محمد عبد الله بن محمد بن غسان: **المصدر نفسه**.
(٣٨) ابن وصاف: **المصدر نفسه**، ص ٥، وما بعدها.

(٣٩) السالمي، نور الدين عبد الله بن حميد: **روض البيان على فيض المنان في الرد على من ادعى قدم القرآن**، ص ٢٧.

(٤٠) الخصيبي، محمد بن راشد بن عبد العزيز: **المصدر نفسه**، ص ٣٢٥.

(٤١) السالمي، نور الدين عبد الله بن حميد: **تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان**، ج١، ص ٣٦٠.

(٤٢) الخصيبي، محمد بن راشد بن عبد العزيز: **المصدر نفسه**، ص ٣٢٥.

(٤٣) ابن وصاف: **شرح الدعائم**، ص ١.

(٤٤) **المصدر نفسه**، ص ٢.

(٤٥) البرادي المغربي النفوسي، أبو القاسم إبراهيم: **المصدر نفسه**، ص ١.

(٤٦) السليمي، أبو عبيد حمد بن مسلم: **الشمس الشارقة في التوحيد**، الطبعة الأولى، ص ٢٤-٢٥.

(٤٧) ابن النظر العماني، أبو بكر أحمد: **الدعائم**، وزارة التراث القومي والثقافة، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ص ١٠-١١-١٣.

(٤٨) ابن وصاف: **شرح الدعائم**، ص ٢٤-٢٥-٢٨..

(٤٩) **المصدر نفسه**، ص ٥٥ -٥٨- ٥٩.

(٥٠) **المصدر نفسه**، ص ٧٥- ٧٩.

(٥١) **المصدر نفسه**، ص ٨٠-٨١.

(٥٢) **المصدر نفسه**، ص٨٨.

(٥٣) **المصدر نفسه**، ص ١١٨-١١٩-١٢٠.

(٥٤) السالمي، نور الدين عبد الله بن حميد: **روض البيان على فيض المنان في الرد على من ادعى قدم القرآن**، ص ١٤.

(٥٥) **المصدر نفسه**، ص٥٨- ٥٩.

(٥٦) **المصدر نفسه**، ص ١٦.

(٥٧) **المصدر نفسه**، ص ١٦.

(٥٨) **المصدر نفسه**، ص ١٦.

(٥٩) القلهاتي، محمد بن سعيد: **كشف البيان** (مخطوطة في مكتبة السيد محمد البوسعيدي، رقم (٧٧٧)، السيب، الورقة ٤٢.

(٦٠) **المصدر نفسه**، الورقة ١٥٠ وما بعدها.

(٦١) الخراسيني، أبي محمد عبد الله بن محمد بن غسان: **خزانة الأخبار** (مخطوطة) في مكتبة معالي السيد محمد البوسعيدي، السيب، رقم (٣٢٩)، ص٢٠. ملاحظة:هناك مخطوطتان الأولى برقم ٥٥١ والثانية برقم ٣٢٩.

(٦٢) الخراسيني، أبي محمد عبد الله بن غسان: **خزانة الأخبار**، الورقة ٢٢٧.

(٦٣) بوحجام، محمد بن قاسم ناصر: **ملاحظات حول تاريخنا القديم**، المطبعة العربية، نمردايه، الطبعة الثانية، ١٩٩٦، ص ٣٨.